فلسفة الهداية والإرشاد (٢)

من أصول التبليغ

د. زهير الأعرجي

ورد عن عميد مدرسة أهل البيت عليهم السلام الإمام جعفر بن محمد الصادق حول شروط التأثير في الناس، قوله عليه السلام: «*ليست البلاغة بحدّة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى وقصد الحجة*»[١].

وقد ورد هذا الأثر البليغ ضمن وصية الإمام الصادق عليه السلام لأبي جعفر محمد بن علي بن النعمان الأحول صاحب الطاق، وهو من الرواة الثقات، الموصوف بمؤمن الطاق. قيل أن النجاشي عنوَنه بأنه ثقة جليل عظيم[٢].

وقد نقل الوصية بكاملها الحسن بن علي بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري) في «*تحف العقول*». فالرواية من ناحية السند متينة، ولذلك فهي محور حديثنا هنا.

وسوف نحاول تحليل ذلك النص المبارك من أجل التوصل إلى نظرية إسلامية في التأثير الديني في الناس.

ولاشك أن التأثير الناجح أصل رئيسي من أصول التبليغ، وركن من أركان دعوة الحق إلى منابع الحقيقة المطلقة، ووظيفة من الوظائف الشرعية للحوزة العلمية على كل فضلائها وعلمائها.

وتحليل الحديث الشريف يستدعي تفصيلاً في السالبة الجزئية، وهي:

١ـ *حدّة اللسان*. ٢ـ *كثرة الهذيان*؛ وتفصيلاً في الموجبة الجزئية، وهي:

١ـ *إصابة المعنى*. ٢ـ *قصد الحجة*؛ وإشارةً إلى التأثير الفكري في المخاطَبين.

السالبة الجزئية

وهو القسم الذي حكمت فيه الرواية، بنفي حدة اللسان وكثرة الهذيان عن أصول البلاغة، حيث يُراد فيها التأثير في الناس.

١ ـ حدّة اللسان

قال الجوهري:

«الحِدَّةُ: ما يعتري الانسانَ من النَزَقِ والغضبِ. تقول: حَدَدْتُ على الرجلِ أحِدُّ حِدّةً وحَدّاً، عن الكسائي»[٣]. و*«قد حَدَّ السَيْفُ يَحِدُّ حِدَّةً، أي صار حَادّاً وحديداً، وسيوفٌ حِدادٌ، وألسنةٌ حِدَادٌ»*[٤].

فاللسان الحاد يعكس مقداراً من القطع يقوم به المتكلم، لكشف ستائر الناس وهتك أسرارهم. وحدّة اللسان تعبّر عن لونٍ من ألوان العصبية التي تعتري الفرد عندما يفتقد الدليل الذي يستند عليه في تقريبه للحجة العقلية.

وقد تظهر الحدّة على أشكال وألوان متباينة. ولكن أظهرها وأكثرها أثراً في النفس هو الغضب. فالغضب يعدُّ نتيجة طبيعية من نتائج عدم استقرار المبلِّغ أو الخطيب استقراراً عاطفياً. فالتمزق الشعوري العاطفي الناتج عن عدم الموازنة بين العقل والعاطفة هو الذي يولّد ذلك الغضب. والغضب يولّد حدّة اللسان. فالأصل في

▣ لاشك أن التأثير الناجح أصل رئيسي من أصول التبليغ، وركن من أركان دعوة الحق إلى منابع الحقيقة المطلقة، ووظيفة من الوظائف الشرعية للحوزة العلمية على كل فضلائها وعلمائها.

▣ حول شروط التأثير في الناس ورد عن الإمام الصادق عليه‌السلام: «ليست البلاغة بحدّة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى وقصد الحجة».

الحدّة هو عدم قدرة الإنسان على تكييف قدراته العقلية في موضوع خارجي معيّن مع شعوره الداخلي.

فالإنسان الذي لايستطيع معالجة مشكلة توزيع الثروة الاجتماعية معالجة فكرية نظرية مثلاً، يقوم بسلق الأغنياء بلسانه الحاد بشتى الاتهامات من سرقة واحتيال وغش. وهذا لايوصله إلى طريقة لمعالجة تلك المشكلة المعقدة؛ لأن المؤمن من الأغنياء يقوم بدفع الحق الشرعي للفقراء.

ولكن قد يأتي مفكر إسلامي فقيه فيعالج المشكلة عبر تحديد طبيعة الأجور، وتثبيت أسعار المواد التجارية، وإلزام بقية الأغنياء بدفع الحقوق الواجبة وحثهم على دفع الحقوق المستحبة للفقراء. ومع ذلك فهذا الأمر ليس هيناً، بل يحتاج إلى جهود مكثفة من أجل البحث عن الدليل وتشخيص طرق معالجة المشكلة.

ولاشك أن دراسة دقيقة لحدّة اللسان تدفعنا للرجوع إلى فهم الدوافع النفسية التي تدفع الإنسان لممارسة ذلك السلوك. فالدوافع النفسية مرتبطة بالجوانب العاطفية عند الإنسان. فكما أن الشعور بالحب يتلازم مع الحنان والمودّة، فإن الشعور بالغضب يتلازم مع حدّة اللسان أو العنف أحياناً. والدافع النفسي لحدّة اللسان يكشف أحياناً عن الفراغ العقلي الذي يعيشه الفرد عندما يفتقد الدليل والبرهان. وهنا يبرز تساؤل مهم يحاول الكشف عن علاقة الغضب والحدّة بالمصلحة الذاتية للانسان.

فهل حدّة اللسان تمثل غطاءً لبعض المصالح الذاتية التي يحاول المتكلم تحقيقها؟ إن الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى مقدمة مختصرة، فيتوضح عندما تتوضح طبيعة العلاقة التالية: كم أنا مدينٌ لنفسي وكم انا مدينٌ للآخرين؟

فإذا كنتُ أشعر بأنني هذّبتُ نفسي بما فيه الكفاية ولاأحتاجُ إلى تهذيب أكثر، فإنني سوف أهتمّ بعيوب الآخرين وأنسى عيوبي. وهو شعور يدينه الدين الحنيف. وقد صدق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: *«طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين»*[٥].

وحدّة اللسان تمثل جانباً من طموح المتكلم نحو السيطرة على عقول المخاطَبين، لا بالمنطق والعقل والمحتوى الفكري النافع بل بقوة الكلمة التي تتلبس باللباس اللفظي البراق. وإذا آمنا بهذه المقدمة، فنكون أقدر على الإجابة عن السؤال الذي طرحناه تواً. والجواب هو: نعم، إن حدّة اللسان تمثل أحياناً ترجمةً عمليةً للمصلحة الذاتية للمتكلم. فليس هناك تفسير معقول لتعليل دوافع حدّة اللسان في التبليغ، عدا دوافع تحقيق مصلحة ذاتية كحب السيطرة على عواطف الآخرين أو حب إذلال

المخاطَبين.

والقاعدة الكلية في التعامل الفكري بين الأفراد تفصح عن: أن الناس تبحث دائماً عن السعادة في حياتها، روحية كانت تلك السعادة أو اجتماعية أو فكرية. فالمؤمن الذي يقلّد الفقيه إنما يقلّده من أجل أن يسعد في الآخرة. والذي يستمع إلى محاضرات المفكر الإسلامي ويقرأ كتبه، فهو يفعل ذلك من أجل أن تتحقق سعادته الروحية عبر الاتصال بالله سبحانه. والذي يتعلم طرق كسب الرزق فهو يسعى لتحقيق السعادة الاجتماعية.

فالسعادة التي يبحث عنها الناس تتحقق عبر إدراك المعاني الواقعية للدين، وبالخصوص المعاني العظيمة الموجودة في الثقلين: كتاب الله المجيد، وأئمة أهل البيت *عليهم السلام* وتعاليمهم ومواعظهم وإرشاداتهم الدينية الإلزامية.

وما يسدّ الطريق نحو تحقيق تلك السعادة المرجوة هو الغضب الذي لايستند على الدليل، وهو ما عبّر عنه لسان الدليل الشرعي بـ «حدّة اللسان»؛ لأن الحدّة ليست تعبيراً أخلاقياً عن رسالة الدين المملوءة بالرحمة واللين؛ وليست وسيلة عملية من وسائل التأثير في الناس.

وقد قال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه الكريم *صلى الله عليه وآله*: ﴿*ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك*﴾[٦]؛ بل هي انتهاك لعقل المخاطَب في التفكير، والإدراك، والعلّية، والمعرفة، والإرادة. والحالة العقلية المثقفة المتدينة لاتقبل انتهاكاً من ذلك القبيل. فجدران المعرفة العقلية تقفُ حاجزاً لرفض المعلومات الناتجة عن الغضب والنزق، لكنها تضع باباً مفتوحاً لتقبل العلم والدليل والبحث العلمي.

إن الأثر المترتب على الفروق بين حدّة اللسان وطراوته هو كالأثر المترتب على اختلاف الأهداف والغايات. فالغاية التي ينظر لها حلوُ اللسان لها وجود واقعي في ضمائر الأفراد المخاطَبين وإدراكاتهم، لأن تقريبها إليهم أثر من آثار حلاوة منطقه ولسانه. بينما الغاية التي ينظر لها حادّ اللسان ليس لها وجود إلّا في عواطفه وإدراكاته. فهي لاتصل إلى عواطف الآخرين ولا إلى إدراكاتهم، لأن العنف في التبليغ يخرب الطريق الموصِل إلى الغاية، وإن كان ذلك الطريق سهلاً ميسوراً.

٢ ـ كثرة الهذيان

والهذيان هو التكلم بغير المعقول لسببٍ من الأسباب. قال في «الصحاح»: «هَذَى في منطقه يهذي ويهذُو هذواً وهَذياناً»[٧].

والهذيان نتاج ينفرد به الإنسان الجاهل او المريض عن بقية الكائنات، وتأثيره السلبي

▣ السعادة التي يبحث عنها الناس تتحقق عبر إدراك المعاني الواقعية للدين.

▣ ما يسدّ الطريق نحو تحقيق تلك السعادة المرجوّة هو الغضب الذي لايستند على الدليل، وهو ما عبّر عنه لسان الدليل الشرعي بـ«حدّة اللسان».

▣ إن الحدّة ليست تعبيراً أخلاقياً عن رسالة الدين المملوءة بالرحمة واللين؛ وليست وسيلة عملية من وسائل التأثير في الناس.

بالغٌ جداً على التنظيم أو الترتيب المنطقي لإدراكات المخاطَب. فالذي يهذي إنما يخلط بين المقدمات والنتائج، والرتب والدرجات، والمعاني الحقيقية والمجازية. ولاشك أن ظاهرة الهذيان عند المتكلم تدفعنا لدراسة أفضل لطبيعة اللغة ونظامها المعرفي، وطبيعة المنطق والفلسفة ونظامهما العلمي المنهجي. فالهذيان يؤدي إلى تخريب المعاني التي يفرضها التسلسل المنطقي للأفكار. ويمكن إرجاع ذلك إلى سببين:

الأول: أن الألفاظ يجب أن تكون متطابقة مع المعاني التي تحملها بالدلالات المطابقية أو التضمنية أو الالتزامية. وانتهاك هذه القاعدة يؤدي إلى انتهاك حرمة المعنى، أو على الأقل إلى تغيير في الأهداف التي يجب أن يحققها على مستوى حدود المستمع أو القارئ أو الجمهور الأوسع.

الثاني: التسلسل المنطقي للأفكار. فالعلاقة بين المفهوم والمصداق في المنطق مثلاً، تعبّر عن علاقة انطباق المفهوم على مصداقه. والمفهوم الكلي يعبّر عن المفهوم الذي لايمتنع انطباقه على أكثر من مصداق واحد. والقضية الحملية تعبّر عن ثبوت الشيء للشيء،وهكذا. وتسلسل الأفكار يقتضي أن نضع المفاهيم والمصاديق في

حصصها الواقعية، وأن لانخلط بينها خلطاً منطقياً.

فمن أمثلة الهذيان أن يقول المتكلم بأن: حقيقة الإنسان مشتقة من نظرية أن الواحد نصف الاثنين. فهنا انتهك المتكلم التسلسل المنطقي للأفكار، لأن حقيقة الإنسان تختلف في المقدمة والنتيجة عن الحقائق الرياضية. ولكننا لو استخدمنا مقدمات القدرة واللطف عند المولى عز وجل لاستنتجنا حقيقة خلق الإنسان؛ وهذا ليس من الهذيان بل هو التسلسل المنطقي للأفكار.

إن الهذيان لا يُعدُّ كذباً ولا افتراءً، ولكنه يعدُّ انتهاكاً أو تغييراً للترتيب المنطقي أو الفلسفي للأفكار. لأن قصد المتكلم الذي يهذي هو التأثير. ولكن، لأن كلامه ينافي الدليل العقلي والعقلانية، فإن تأثيره في المخاطَبين يكون سلبياً. والخطيب الذي يقول: «إن التشيع أخضرٌ، والحمرةُ تصبغه» مثلاً، ربما يجد من يصنّف كلامه على أساس الشعرية والرومانسية والتعبيرية. ولكن الواقع والإنصاف أن تلك اللغة المعرفية لاتبني فرداً ولا تضع حجراً على حجر في البناء الأخلاقي. وشد العقيدة باللون لا يحمل ترتيباً منطقياً للأفكار. إذن على الخطيب الشحشح أو المبلِّغ الإسلامي الابتعاد عن تلك الاصطلاحات التي لاتشكل تصوراً صحيحاً عند الإنسان، وهو عين ما فهمناه من النهي عن كثرة الهذيان.

وبطبيعة الحال، فإن العلاقات الفلسفية أو المنطقية بين الأفكار تثمر في تشخيص علاقات بين الحقائق ذاتها. فإذا لم نستطع أن نكوّن علاقة فلسفية أو منطقية بين ظلم الظالم وصرخة المظلوم، فإننا لانستطيع تشخيص حقيقة ظلم يزيد ومظلومية الإمام الحسين *عليه السلام*. وإذا لم نستطع تكوين ترتيب منطقي بين الوصية في حياة الموصي ومخالفتها بعد وفاته، فإننا لانستطيع الربط بين تولية الإمام أمير المؤمنين *عليه السلام* في غدير خم وبين نقض الولاية من قبل الخلفاء الثلاثة بعد وفاة رسول الله *صلى الله عليه وآله* لدوافع سياسية.

وبذلك نخلص إلى نتيجة مهمة وهي أن الترتيب المنطقي للأفكار يوصلنا إلى تشخيص الحقائق التأريخية بما هي حقائق، لا بما هي أوهام. وأين هذا من الهذيان الذي لايوصلنا إلى شيء!! بل يجعلنا ندور في حلقة مفرغة، تدمر وجودنا الفكري والعقائدي!! إن أقصى ما يوصلنا الهذيان اليه هو اللامعنى. وبتعبير آخر، فإن الهذيان ينفي المعاني عن الأشياء والحوادث والكلمات، لأنه يُفقدها العلاقة المنطقية أو الفلسفية التي تربطها بعضاً ببعض وتكوّن منها قضية نفهمها وندركها بوضوح.

▣ إن الترتيب المنطقي للأفكار يوصلنا إلى تشخيص الحقائق التأريخية بما هي حقائق، لا بما هي أوهام.

▣ إن الهذيان لا يُعدُّ كذباً ولا افتراءً، ولكنه يعدُّ انتهاكاً أو تغييراً للترتيب المنطقي أو الفلسفي للأفكار؛ لذلك يكون الهذيان في التبليغ تأثيره سلبي.

ونستطيع الآن، وبعد أن أدركنا خطورة الهذيان في التبليغ، أن نحدد الضابطة التي تضبط حدود الدليل العقلي أو العقلانية عن الهذيان. والضابطة هي: مقدار فهمنا للغة التي نتكلم بها، وحجم العلاقات الفلسفية بين الأفكار التي نبثّها بين الناس. فالمقدار المتيقّن من الهذيان هو المرفوض في اللغة والمرفوض في الكلمات التي لا يدرك أهل الاختصاص معانيها. وليس في جملها علاقة معرفية أو عرفية أو فلسفية. وإذا رُمنا مخاطبة الناس، فإن الخطاب ـ كي يكون مستنداً على العقل يجب أن لا يتضمن اصطلاحات مفككة مرفوضة لا يربطها رابط فلسفي أو شرعي. وهذا هو المراد، فيما نفهمه، من عدم الهذيان في لسان الدليل.

الموجبة الجزئية

وهو القسم الذي حكمت فيه الرواية بثبوت إصابة المعنى وقصد الحجة في أصول البلاغة، حيث يراد منها التأثير في الناس.

١ ـ إصابة المعنى

إن إصابة المعنى تعني قابلية الإنسان على إيصال أو إبلاغ ما يحمله من الأفكار والمفاهيم بطريقة أرقى من طريقة تحريك بعض أعضاء الجسم كاليدين أو الرجلين. والطريقة المقصودة هنا هي: الطريقة اللغوية

التي نتفاهم بها بعضنا مع بعضنا الآخر. فاللغة تستطيع توصيل مفاهيمنا ومشاعرنا إلى الآخرين. ولكن ماهي الألفاظ اللغوية التي نستطيع استخدامها من أجل إصابة المعنى؟

إذا آمنا بأن القرآن الكريم مرآة الدين، فلابد لنا من استخدام مفردات اللغة القرآنية في إصابة المعاني التي نروم إبلاغها الناس. فاللغة القرآنية تستطيع أن تصف لنا العالم المحيط بنا عبر الإيمان بالغيب: ﴿...*الذين يؤمنون بالغيب*...﴾[٨]، واحترام الوالدين: ﴿*ووصينا الإنسان بوالديه حسناً*﴾[٩]، والزواج ﴿*ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها*...﴾[١٠]، والتجارة: ﴿*يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم*...﴾[١١]، والأخوّة: ﴿*إنما المؤمنون إخوة*﴾[١٢].

وتستطيع اللغة نفسها أن تصور لنا العالم الآخر الذي ينتظرنا إذا آمنا بالله وعملنا الصالحات: ﴿*وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار*...﴾[١٣]، أو انتهكنا حرمة ذلك الإيمان: ﴿...*متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد*...﴾[١٤].

فاللغة القرآنية في جميع تلك الحالات تصف لنا العالم بما فيه من أحداث ووقائع. واللغة الدينية تساعدنا على تشكيل أحاسيسنا وتصوراتنا عن الحقائق الخارجية، وذلك بإعطائنا معانٍ محددة عن الوقائع والأشياء.

وهذا يعني أن استخدام اللغة لايتوقف عند إعطاء المعنى فحسب، بل يتعدى إلى تعيين حجم الاستجابة لذلك المعنى أيضاً. فحينما أتصور حلية التجارة، والزواج، والسفر في طاعة الله فإنني سوف أتحرك في دائرة الحلّية. وحينما اتصور حرمة السرقة، والزنا، وسفر المعصية فإنني أتجنب تلك الدائرة المحرمة وأبتعد عنها. وهذا الذي نفهمه من إصابة المعنى في التبليغ.

ولنأخذ على ذلك مثالاً من واقع عقيدتنا وتأريخنا. ونرجع تأريخياً إلى الوراء، وبالتحديد إلى *القرن الأول الهجري*. فإذا كنتَ تتصور أن يزيد بن معاوية كان فاسقاً لايستحق الخلافة، وأن الإمام الحسين كان إماماً عادلاً اغتُصبت منه الخلافة وذُبح ظلماً مع أبنائه وأصحابه في كربلاء؛ فإنك سوف تؤمن بالحسين ومبادئه ومظلوميته. ولكنك لو كنت ترى أن يزيد بن معاوية كان خليفة المسلمين، وأن الإمام الحسين قد خرج عن طاعة ذلك الخليفة المزعوم! فإنك ستقف مع يزيد ضد الإمام الحسين. فما الذي جعل الرأيين مختلفين؟

ليس واقعة كربلاء بالتأكيد، لأنها ـ وهي

واقعة تأريخية سواء بالنسبة للطرفين. بل إن الذي جعل الرأيين مختلفين هو في المعاني التي أعطيت للأحداث، والكلمات التي وصفتها. فإن الاختلاف في الكلمات والمعاني يعكس الاختلاف في العوالم والتصورات.

فإذا أدركنا معنى الولاية الشرعية وتجرّدنا عن بعض مصالحنا في تأييد الحاكم، فإننا نجد أن الإمام الحسين *عليه السلام* كان مصداقاً لمظلومية المصلح الديني والاجتماعي في التأريخ الانساني. فهو يمثّل الإسلام بأنصع صوره. وما وقوفه في صحراء العراق في كربلاء عطشاناً يحارب الظلمة، وأكباد أهل بيته من حوله ثغرى، إلّا مثالاً فذّاً من أمثلة التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة التي آمن بها.

إذن، إذا فهمنا معنى الإمامة الشرعية لأئمة أهل البيت *عليهم السلام* استطعنا فهم الأحداث المفجعة التي رافقت حياتهم الشريفة، واستطعنا فهم المبررات التي تجعل الشيعة يتمسكون بهم تماماً كما يتمسكون بالإسلام. فعدم الانفكاك ذلك يُفسَّر على أساس أنهم *عليهم السلام* هم جوهر الإسلام وحقيقته. ولكن إذا اختلط علينا الأمر وآمنا بشرعية الخلافة، وإن كان الخليفة فاسقاً، فإننا سنكون مع الطرف المعادي لهم، والعياذ بالله.

ولاشك أن الكلمات التي حملتها لنا الروايات في وصف أئمة أهل البيت *عليهم السلام* حيوية جداً للتفكير الإسلامي ذاته. فالفكر واللغة متلازمان تلازماً جوهرياً لايقبل الانفكاك. فإذا أخذنا نصاً آخر من وصية الإمام الصادق لمؤمن الطاق، يقول *عليه السلام* فيها: «يا ابن النعمان إن حبنا ـ أهل البيت ينزله الله من السماء من خزائن تحت العرش كخزائن الذهب والفضة. ولا ينزله إلّا بقدر ولا يعطيه إلّا خير الخلق. وإن له غمامة كغمامة القطر، فإذا أراد الله أن يخصّ به من أحب من خلقه أذن لتلك الغمامة فتهطلت كما تهطلت السحاب، فتصيب الجنين في بطن أمه»[١٥].

فإننا نلحظ أن فكرة حب أهل البيت لم تكن لتأتي إلينا ونفهمها قبل ورود الكلمات لتعبّر عنها. بل إننا فكّرنا بالكلمات التي جاءتنا وهي تصف عظمة أهل البيت، ثم آمنا بها. فإصابة المعنى، تعني الوصول إلى الفكرة التي تحملها الكلمات. وإصابة معنى حب أهل البيت *عليهم السلام* في هذا النص هو إيصاله إلى المخاطَب، بحيث يدرك أنهم حملوا الرسالة السماوية فهماً ومصداقاً، وممارسة وجهاداً.

والمبلِّغ الحوزوي الرسالي، باعتباره يحمل الفكرة الصحيحة عن الإسلام بما فيه من قرآن

□ والمبلِّغ الحوزوي الرسالي، باعتباره يحمل الفكرة الصحيحة عن الإسلام بما فيه من قرآن وعترة، لابد له من التفكير بالطريقة السليمة لإيصال تلك الفكرة إلى المخاطَبين عبر كلمات دقيقة.

وعترة، لابد له من التفكير بالطريقة السليمة لإيصال تلك الفكرة إلى المخاطَبين عبر كلمات دقيقة. أي إن تكليف المبلِّغ يتمثل بنقل الفكرة الدينية إلى المخاطَبين حتى يصيبوا معاني الفكرة، وعندها يكون ايمانهم بها ايماناً راسخاً قطعياً. ومن أجل إنجاز ذلك يتحتم على المبلِّغ فهم اللغة ومفرداتها فهماً شاملاً واستيعاب معاريضها استيعاباً معمّقاً. فما لم نستعمل اللغة بدقة وبوضوح، فلا يمكننا نقل أفكارنا حول الإسلام والقرآن وأهل البيت عليهم السلام إلى العالم المحيط بنا.

والكلمة البليغة في الأفكار، تشبه السهم الذي يطلقه الصائد من أجل إصابة الطير ـ مثلاً ـ. وعندها يفوز الصياد بجائزته، وهو طير يعدُّ للأكل. فالكلمات هي سهام المتكلم في إصابة المعاني، وعندها تستقر في أذهان الناس من أجل تنظيم حياتهم عبر تنظيم أفكارهم وعقائدهم.

إن النجار لايستطيع أن يدقّ المسمار في الخشب بواسطة الفرشاة، ولايستطيع أن يدهن الخشب بالمطرقة. فلابد من غرس المسمار بالمطرقة ودهن الخشب بالفرشاة. وكذلك المتكلم الذي يهدف إلى إيصال الفكرة، فلابد له من استخدام الكلمات الدقيقة الواضحة التي تعكس الأفكار وتوصلها.

معاني الكلمات

للكلمات، في جميع اللغات البشرية، معنيان فلسفيان.

الأول: مصداقي. وهو معنى ظاهر لايحتاج إلى تأويل أو استظهار. وهذا المعنى يحمل معنىً مبسطاً للأشياء والحوادث والأفكار، ولكنه لايحمل بصمات شعورية أو عاطفية

تشد الإنسان. مثل كلمة صنعاء، ومدرسة، ومزرعة.

فتلك الكلمات تعبّر بالترتيب عن عاصمة لبلد عربي، وبناية لتدريس الطلبة، وقطعة أرض لزراعة الخضروات والفواكه. فالذي لم يرَ صنعاء في حياته لاتتحرك عواطفه عندما يرنُّ في أذنه لفظها أو مسماها. والطالب الذي لم يدرس في مدرسة المدينة لاتتحرك عواطفه نحوها. والموظف الذي لم يرَ حقلاً في حياته، فإن مشاعره لاتتحرك تجاه الحقول والمزارع.

الثاني: مفهومي. وهو معنى موضوعي متغير بتغير المواضيع. فعندما نسمع كلمة «المدينة» نفهم منها أنها مدينة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله المنوّرة، مع أن لفظ «مدينة» يطلق على كل المدن. ولكن في تلك اللفظة خصوصية دينية مشرَّفة. وعندما نسمع بكلمة «مشهد» يتبادر إلى ذهننا مشهد الإمام الرضا عليه‌السلام، مع أن كل الأماكن المقدسة مشاهد... وهكذا.

فالمعنى المفهومي إذن يتضمّن كل المشاعر والأحاسيس والأفكار المرتبطة بتلك الكلمة التي عبّرت عن معنى معين. وفي ضوء ذلك فإن كلمات هذا الحقل مشحونة بالعواطف والقوة التي تحملها في: الحب، والكره، والغضب، والخوف، والأسى، والصداقة، والطمع، والذنب، والطاعة ونحوها. والكلمات المفهومية توصل المعاني إلى المخاطَبين بشكل أفضل من تلك التي تحملها الكلمات المصداقية. ولنصوغ حول ذلك مثالاً مكتوباً حول معاوية بن أبي سفيان وحكمه الأموي من أجل أن نرى الفرق بين معاني المفهوم والمصداق.

المعنى المفهومي: «معاوية لم يذعن للعقل ولا الشرع، ولم يخضع للعقلانية ولا الشرعية في تعامله مع الآخرين. فقد كان هدفه بث الرعب لإرعاب المستضعفين من أجل إذلالهم والسيطرة عليهم. فقد كان مقياس نجاحه السياسي هو مقدار الرعب الذي كان يبثّه بين الناس. معاوية كان مستعداً لقتل الأبرياء بأي ثمن من أجل السلطة. وكان شعاره: القتل بلا رحمة. بل كانت زبانيته أمثال بسر بن أرطأة، والضحاك بن قيس، وسفيان بن عوف، وعمرو بن العاص وأشباههم؛ يخططون لقتل المعارضين من شيعة أهل البيت عليهم‌السلام ببرودة أعصاب. لقد كان معاوية ونظامه السياسي عاراً على المسلمين. ومع ذلك كانت أهداف معاوية أحطّ من أساليبه التي استخدمها ضد المؤمنين».

المعنى المصداقي: «معاوية لم يتفاوض بجدية مع أمير المؤمنين عليه‌السلام. وكان يبحث عن النصر عبر الضغوط السياسية والنفسية.

وكان يستخدم العنف والإرهاب مما وضع حياة الناس في خطر. لقد كان هدف معاوية أنزل من أساليبه التي استخدمها».

فنلحظ هنا أن الكلمات التي استُخدمت في المفهوم كالعقل، والشرع، والرعب، والارعاب، والقتل، والعار، وبرودة الأعصاب كلها تعطي معانٍ مشحونةً بالمشاعر كالغضب، والأسى، والألم لما آلت اليه أمور المسلمين على يد ذلك الداهية الطاغية السفاح. ولاشك أن إصابة المعنى لدى المخاطَبين أقربُ في المفهوم منها في المصداق. فكان علينا اختيار الكلمات بمهارة من أجل توصيل المعاني الحقيقية للناس.

دقة اللغة

إن استخدام اللغة بشكل دقيق قضية حيوية جداً في الوظيفة التبليغية. فكما أن المحاسِب في الصيرفة لايخطأ أو يحاول أن لا يخطئ في العدّ لأن ذلك يكلّفه رزقه ومعيشته، كذلك المبلّغ فإن عليه مسؤولية اختيار الكلمات المناسبة للمعاني حتى يصيب الهدف. فإذا كان المبلّغ لايميّز بين معنى التحميل ومعنى التكليف مثلاً، فإنه قد يقول إن الله سبحانه حمّلنا تكاليف ثقيلة وهو غير صحيح؛ لأن التحميل لايكون إلّا لما ثقُل وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿*ولاتحمل علينا إصراً*﴾[١٦]، والإصر هو الثقل.

أما التكليف فهو ما لاثقل له كطلب الاستغفار فتقول: كلفه الله الاستغفار ونحوه. وتشخيص تلك الألفاظ للمعاني المخصوصة، له آثار إيجابية على ذهن المخاطَب، إذا كان الاختيار موفقاً. وله آثار سلبية على ذهن المخاطَب، إذا كان الاختيار سقيماً غير موفق. وهذا التشخيص أو التمييز الدقيق للاصطلاحات يساهم في تشخيص الأفكار وتحديد أبعادها. ولكن عدم التمييز يضرُّ بعملية التبليغ خصوصاً بين الطبقة الواعية المثقفة، لأن ذلك يسبب خلطاً وتشويشاً لأفكارها.

وقد لايميّز المبلّغ بين الإبلاغ والإيصال، فيخلط بينهما. وللتوضيح فإن الإبلاغ يقتضي بلوغ فهم المخاطَب وعقله كالبلاغة التي تصل إلى القلب، بينما لايعني الإيصال إلّا الوصول إلى سطح الذهن. فالإبلاغ أشدّ اقتضاءً للمنتهي اليه من الإيصال.

وقد يخلط المرء بين الاستدلال والاحتجاج. ولتوضيح المطلب فإن الاستدلال محاولة طلب الشيء من جهة غيره. والنظر أو الاحتجاج طلب معرفته من جهته ومن جهة غيره.

وهكـذا، فـإن الجـهل بـتلك المـفردات ودلالاتها يؤدي إلى جهل المـبلّغ بـمعانيها. وبذلك سوف تترتب على استخدامـها آثـار تختلف عما أريد منها من آثار لو استخدمت في مواضعها الصحيحة. وفي ذلك حيود عن مفاهيم الرسالة والدين والشريعة. ومـن أراد التفصيل في الفروق اللغوية فـليراجـع مـثلاً كتاب «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري من أعلام القرن الرابع الهجري ونـحوها مـن كتب الفن. ومن أراد التفصيل فـي مـفردات القرآن الكريم فليراجـع كـتاب «المـفردات» للراغب الأصفهاني.

▣ إن استخدام اللـغة بشكـل دقـيق قـضية حـيوية جـداً فـي الوظـيفة التبليغية.

▣ المـبلّغ عـليه مسـؤولية اخـتيار الكـلمات المـناسبة للـمعاني حـتى يصيب الهدف.

دقّة الاستعمال

ولما كان موضوع اللـغة المـتمثل بـإصابة المعنى يأخذنا إلى مساحات واسعة من الفكر والتحليل. فـقد آثـرنا أن نـدرج الأسـلوب الأفضل لاستخدام اللغة بالنقاط التالية:

أولاً: استخدام الكلمات بشكـل واضـح. لأن الأفراد يـختلفون فـي الفـهم والإدراك. فـلا يمكن الافتراض بأن كل ما هو واضح لديـنا هو واضح وجلي للآخرين. فقد يكون من بين المـخاطَبين مـن لايسـتطيع فـهم بـعض الاصطلاحات الأصولية كالمقدمة الموصِلة، ووجـوب المـقدمة بـوجوب ذي المـقدمة، والمـقدمة المـطلقة وغـيرها. وليس هـناك قاموس أصولي يرجع له خـلال المـحاضرة

مثلاً. فكيف نطرح تلك الاصطلاحات ونحن نعلم أن من بين الحضور من لايهضمها ولايفهم معناها؟

فمراد المتكلم في محاضرة تبليغية عامة يجب أن يُفهم بشكل مباشر. فلامجال هنا لفهم مناقضٍ لمعاني الكلمات المطروحة من قبلٍ المبلّغ تجاه المخاطَب. وإذا حصل ذلك، فإننا نكون قد نسفنا عملية التأثير من الأساس، ولم نصل إلى مستوى إصابة المعنى المطلوب. نعرض مثالاً حصل في إحدى الجامعات لعامل ماهر لم يستطع فهم مراد الجامعة. فكان يبني في كل مرة يخاطبها على الصورة التي يفهمها هو، لا على ما تريده الجامعة.

يروى أن أحد العمال المهرة من المتخصصين في تنظيف الجدران الفضية لإحدى الأماكن المقدسة، كتب إلى الجامعة يستجيزها استخدام مادة كيميائية قوية وهي حامض الكبريتيك للتنظيف. فأجابته الجامعة في رسالة، قائلة: «إن فعالية حامض الكبريتيك غير قابلة للجدل ولايمكن مجاراتها لأي حامض أو قلوي آخر، إلّا أن التأثير الصدأي غير متوافق مع الديمومة المعدنية». فكتب لها شاكراً موافقتها على استخدام حامض الكبريتيك.

فكتبت له الجامعة رسالة توضيحية أخرى قائلة: «نحن غير مسؤولين عن تفاعل حامض الكبريتيك مع الشوائب المعدنية ونقترح استخدام البديل». فكتب لها مرة أخرى شاكراً موافقتها على استخدام حامض الكبريتيك.

فكتبت له الجامعة ثالثة وهي تخشى التخريب الذي سوف يحصل باسمها لو استُخدم ذلك الحامض على الفضة: «لا تستخدم حامض الكبريتيك، فإنه يأكل الفضة ويسوّدها كما يفعل التيزاب».

وإن صحت هذه الرواية، فإنها تعبّر عن ضرورة صياغة الخطاب ـ حتى لو كان علمياً بحيث يفهمه الناس. وما الأثر المروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: *«إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»*[١٧] إلّا منار لهدايتنا في هذا الطريق.

ثانياً: استخدام الكلمات المناسبة التي يألفها الناس. لا الكلمات المعقدة المختصرة التي لايدرك معانيها إلّا المختصون. فالكلمات الثابتة مثل: الجنة، والنار، والحساب، ويوم القيامة، والعذاب، والسوق التجاري، والبيع والشراء أقربُ فهماً للناس من اصطلاحات معقدة مثل: نظرية فائض القيمة، والتفاعل الاجتماعي، والميكانيكية الفكرية ونحوها. ولاشك أن مجرد إملاء الخطب بالشعارات الرنانة والاصطلاحات المعقدة لا يترك أثراً في الجمهور إلّا أثر الشكوك بأن الخطيب أو المتكلم يتظاهر بالعلمية والعمق، ولكن واقعه

قد يخالف ظاهره. وتلك الشكوك تنسف الجسر الذي يروم الخطيب بناءه مع المخاطَبين.

إن الاصطلاحات الفنية المعقدة لها محلها الخاص عندما يكون المخاطَبون يملكون الحد الأدنى من قواعد الفن. فمثلاً يقول أحد كبار الأعلام في أصول الفقه ممهداً لشرح الحقيقة الشرعية: «إن الوضع التعييني كما يحصل بالتصريح بإنشائه، كذلك يحصل باستعمال اللفظ في غير ما وضع له كما إذا وضع له بأن يُقصد الحكاية عنه، والدلالة عليه بنفسه لابالقرينة»[١٨].

وهذا المقدار من الكلام إذا طرحه الخطيب أو المفكر على جماعة فيهم المثقف وغير المثقف، يكون صعب الفهم بعيد المنال إذا كانت اصطلاحات: الوضع التعييني، واستعمال اللفظ، والقرينة؛ غير مألوفة لديهم. ولكن فلنأخذ معنى الكلام السابق نفسه ونحاول صياغته بشكل أوضح، وبلغةٍ قريبةٍ من لغة الجمهور. فنقول: «نفترض أن رجلاً ولد له ابنٌ ولم يُعيّن له اسماً بعد، فقال: ناولوني ولدي هذا محمداً ـ قاصداً به تسمية ولده بمحمد فهنا استُعمل اللفظ في غير ما وضع له. وهذا هو القسم الأول من أقسام الوضع. أما القسم الثاني فهو أن اللفظ يوضع في أحيان أخرى للمعنى بكتابة أو قول أو نحوهما». ولاشك أن هذا المقطع قد يكون صعباً أيضاً لبعض المخاطَبين، ولكنه بالمقارنة مع المقطع السابق أيسر وأكثر وضوحاً وأقرب إلى الذوق الثقافي العام. وهذا هو المراد من استخدام الكلمات المناسبة التي يألفها الناس، من أجل تحقيق اكبر قدر من التأثير عليهم.

ثالثاً: إن إصابة المعنى قد تتطلب من المفكر أو المبلّغ أو الخطيب النهوض من العموميات إلى الخصوصيات. ونقصد بالعموميات: الأفكار العامة التي تُستثمر فيها المعلومات التي لاتمتلك خصوصية معيّنة مثل: الظلم، والعدالة، والسياسة. ونقصد بالخصوصيات: المصطلحات التي تعبّر عن أفكار وأوصاف خاصة بأشخاص أو أمكنة مثل: مقتل الحسين *عليه السلام*، وظلم يزيد، وعدالة امير المؤمنين *عليه السلام*. ولنأخذ مثالاً من الخصوصيات وآخر من العموميات ونقارن بينهما:

مقطع من العموميات: «الظلمُ أمرٌ قبيحٌ. ولولا وجود الظالمين لعاش الناس في سلام ووئام. ولكن الظلم موجود على طول التاريخ».

مقطع من الخصوصيات: «كل مرةٍ أفتحُ عيني على ظلمٍ يصيبني أتذكّرُ مظلومية الإمام الحسين *عليه السلام*. فقد ذبحه جلاوزة الطاغية يزيد وذبحوا أهل بيته *عليهم السلام*، لانه *عليه السلام* صدع بالحق ورفض الذل والهوان.

وبعد واقعة الطف، فإن كل ظالم أخذ يرتدي عباءة يزيد وكل مظلوم اخذ يقتدي بالحسين عليه السلام».

فلاشك أن المقطع الثاني أوقع أثراً وأشدّ حساسية ورهافة من المقطع الأول، لأن فيه أفكاراً خاصة باحد الأئمة المظلومين عليهم السلام. وهذه قاعدة مهمة في التبليغ، فما لم يدخل المبلّغ في الخصوصيات، فإنه لايستطيع التأثير على المخاطَبين تأثيراً فعالاً.

رابعاً: استخدام الكلمات التي تخلق صوراً واضحة في الذهن. وهذا الأسلوب فعال في إصابة المعنى على الصعيد الذهني. ولنرجع إلى القرن الأول الهجري مرة أخرى ولنتصور أننا من أتباع أهل البيت عليهم السلام نُضطهد مع أبنائنا ونسائنا، فيُطلب من أحدنا أن يخطب خطاباً مُحرِّكاً يتفاعل معه الجمهور تفاعلاً عظيماً. ترى ماذا كان يقول؟:

الصورة الواضحة: «يسألوننا، كأتباع لمذهب أهل البيت عليهم السلام: متى تقبلون بوضعكم الديني تحت راية الخليفة الأموي وتنسون تأريخكم؟ لن نقتنع بوضعنا السياسي والاجتماعي مادام يذبحنا الخليفة الظالم كما تُذبح الخراف. لن نقتنع بوضعنا السياسي طالما يقبع أبناؤنا في السجون لا لذنب لهم إلّا لولايتهم لأمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام. لن نقتنع بوضعنا مادامت نساؤنا وبناتُنا يرزحن عارياتٍ في سجون الطاغية المستبد. كلا، والف كلا. لن يقرَّ لنا قرار حتى ينساب العدل كما ينساب الماء الزلال من الجبال الشماء. ولن يقرَّ لنا قرار حتى تدور طاحونة العذاب والموت والانتقام على بني أمية وجلاوزتهم. وعندها يرثُ اللهُ الأرضَ لعباده المؤمنين الصابرين المجاهدين».

هنا لم نحلل معنى الظلم تحليلاً فلسفياً أو شرعياً، بل تصورنا الظلم ينزل علينا من حكام بني أمية كغمامة سوداء تخنقنا ونحن في بيوتنا. فالذبح، وسجون الأبناء والرجال والنساء، والاستبداد كلها كلمات تصوّر الظلم.

ولو فتشنا في التأريخ الإمامي لوجدنا خطبة العقيلة زينب عليها السلام في مجلس عبيد الله بن زياد في الكوفة مثالاً ناصعاً من أمثلة الكلمات الفعالة التي تخلق صوراً واضحةً في ذهن المخاطَب. تقول عليها السلام: «الحمد لله والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار. أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر. أتبكون! فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم. ألا وهل فيكم إلّا الصَلَف النَطَف[١٩]، والعجب والكذب والشنف[٢٠]، وملق الإماء[٢١]، وغمز الأعداء[٢٢]، أو

كمرعى على دمنة[٢٣]، أو كقصبة على ملحودة[٢٤]. إلّا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون»[٢٥]. وكم هي رائعة وناصعة تلك الخطبة النارية لبنت سيد الخطباء أمير المؤمنين عليه السلام.

إن من وسائل إصابة المعنى هو خلق كلمات تصويرية في ذهن المخاطَب حتى يتفاعل تماماً مع ما يقوله الخطيب أو المفكر أو الكاتب الإسلامي. فإذا كان خبيراً فيستطيع أن يجعلنا نسمع خرير الماء، وأصداء الطيور، وحفيف الأشجار. ويستطيع أن يجعلنا نشُمّ عبق الجنة، وعطر الشهادة، ورائحة الأجساد المحروقة في جهنم، ورائحة الموت والدم العبيط. ويستطيع أن يجعلنا نرى معاناة رسول الرحمة صلّى الله عليه وآله، وشجاعة أمير المؤمنين، وألم الإمام الحسين، وصبر الإمام الكاظم سلام الله عليهم. ولاشك أن العالِم أو المفكر أو المبلّغ يستخدم أو يستثمر الكلمات المصوّرة من أجل نفخ روح الحياة في الأفكار التي يريدنا أن نؤمن بها.

٢ ـ قصد الحجة

والحُجَّةُ: البرهان. وفي «الصحاح»: «تقول حاجَّهُ فحجَّه أي غلبه بالحُجَّةِ. وفي المثل: لَجَّ فَحَجَّ»[٢٦]. والقصدُ: إتيان الشيء. فقصد الحجة هو: إتيان البرهان. والمعروف في علم المنطق ان الافتراض إما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً. ومع أن هناك مساحة للصدق «كأن يكون هناك صدق قطعي أو صدق غير قطعي» وأن هناك مساحة للكذب «كأن يكون هناك كذب قطعي أو كذب غير قطعي»، إلّا أن المنطقة الرمادية بين الصدق والكذب غير معروفة فلسفياً. فهناك جدار معرفي بين الصدق والكذب مشخّص علمياً وغير قابل للهدم. وليس في الافتراضات المنطقية، وكعنوان عام، إلّا الصدق أو الكذب. ونحن لانؤمن بالنظريات الحديثة التي تزعم بأن الافتراض الصادق أو الكاذب له قيمة واحدة تسمى بـ«قيمة الحقيقة» أو قانون «ثنائية التكافؤ»[٢٧]. ونقاش ذلك خارج محل هذا البحث.

وزبدة القول هنا، أن المقالات الفلسفية تُقسم إلى قسمين متناقضين في الإخبار. الاول: الصدق. والثاني: الكذب. أما في الإنشاء، فإن الأمر يختلف. فقد تنشأ جملة تقول فيها: إن الحرب بين الطرفين ستقع في المستقبل القريب. فإنك هنا لم تمارس مقالةً في الصدق أو الكذب، بل إنك توقعت أن تقع الحرب. وهو أمرٌ له طاقة كامنة كي يكون صادقاً، وطاقة كامنة كي يكون كاذباً. وهذا هو معنى الإنشاء.

وقصد الحجة في البلاغة والتأثير، هو أن

يعلم المبلِّغ ان القضايا التأريخية تحتمل التصديق والتكذيب من قبل المخاطَبين. وليس هناك منطقة وسطية بين التصديق والتكذيب، لانه لاتوجد منطقة وسطية بين الصدق والكذب ذاتهما. وهنا بيت القصيد، فكيف يستطيع المفكر الشيعي تقديم تأريخ أهل البيت عليهم السلام بصورته الناصعة بحيث يكون تصديقه من قبل المخاطَبين من غير الشيعة أكبر من احتمال التكذيب؟ وهنا يأتي دور العقل الشيعي في تقديم البرهان السليم على صحة ما نقول وصحة ما ندعي. وهذا يستدعي عرض النقاط التالية:

(١) توثيق الحقائق التأريخية بحيث لايبقى مجال للشك في مصداقيتها وصحة طرق إسنادها. فما لم توثق الحقائق التأريخية، فإن مجال احتمال الكذب فيها يبقى قائماً. فحديث الولاية في غدير خم مثال جيد من أمثلة التصديق لدى المخاطَبين لأنه موثّق من طرق المدرستين السنّية والشيعية.

(٢) ترتيب الأفكار التأريخية ترتيباً منطقياً بحيث لاتسبق النتيجةُ المقدمةَ، ولاتسبق النظريةُ الافتراضَ، ولايسبق البرهانُ المطلوبَ إثباته. فنحن نستطيع تحليل أبعاد إقصاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن الولاية الشرعية بعد وفاة رسول الله إذا استطعنا فهم طبيعة الصراع الاجتماعي في

▣ إن من وسائل إصابة المعنى هو خلق كلمات تصويرية في ذهن المخاطَب حتى يتفاعل تماماً مع ما يقوله الخطيب أو المفكر أو الكاتب الإسلامي.

▣ ولو فتشنا في التأريخ الإمامي لوجدنا خطبة العقيلة زينب عليها السلام في مجلس عبيد الله بن زياد في الكوفة مثالاً ناصعاً من أمثلة الكلمات الفعالة التي تخلق صوراً واضحةً في ذهن المخاطَب.

عصر الرسول ذاته. فإذا افترضنا وجود صراع اجتماعي بين الطبقة الجاهلية الحاكمة ـ التي هُزمت بعد انتصار نداء *لا اله إلّا الله* وبين المستضعفين المؤمنين برسالة الإسلام، فإننا نستطيع فهم خطورة نظرية الولاية الشرعية على تلك الطبقة المهزومة. وإذا فهمنا تلك المقدمة في عصر رسول الله، فإننا نقدر على فهم النتيجة بعد وفاته *صلّى الله عليه وآله*.

(٣) الالتزام بالقواعد والأصول الشرعية في فهم التأريخ. ومن تلك القواعد مثلاً: قاعدة حتمية بقاء الدين وانتصار المؤمنين. وتلك الحتمية قررها القرآن الكريم بقوله: ﴿*وكان حقاً علينا نصر المؤمنين*﴾[٢٨]، ﴿*وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض...*﴾[٢٩]. وتلك الحقيقة الدينية مقالة صادقة قابلة للتصديق فلسفياً. واخذها كمقدمة وربطها بالأفكار التي رتبت ترتيباً منطقياً، سيقودنا إلى نتيجة مهمة وهي حتمية بقاء الولاية الشرعية للمعصوم *عليه السلام* أو من ينوبه من الفقهاء ذي اللياقة العلمية والاجتماعية.

وإذا علمنا بأن البرهان في بعض جوانبه يحتاج إلى تحليل وصفي للضرورة والإمكانية والاستحالة، فإننا قد نضع إصبعنا على موضع الداء التأريخي. فهل الولاية الشرعية *ضرورة أم إمكانية أم استحالة*؟

فإذا كانت *استحالة*، فكيف نفسر الوجود النظري والمصداقي للولاية في صدر الإسلام؟ ألم يقل المولى عز وجل: ﴿*يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم*﴾[٣٠]؟ ألم يثبت التأريخ أن ولاية رسول الله *صلّى الله عليه وآله* وأمير المؤمنين *عليه السلام* كانت ولاية مطلقة على المسلمين جميعاً؟ إذن لا مكان للاستحالة هنا.

وإذا كانت *إمكانية*، فإنها لاترقى لكي تكون حقيقة. لأن المناطقة يقولون: إذا كان من الضروري وجود «ب»، فإن من المستحيل أن توجد لا «ب». وهذا يعني أنه ليس ممكناً أن توجد لا «ب». فالإمكانية ينبغي أن ترتقي إلى مستوى الضرورة، حتى نعترف بها كحقيقة واقعة. وبلغة أكثر موضوعية فإن كان من الضروري وجود الولاية، فإن من المستحيل أن يوجد نفي الولاية.

وهذا هو المقصود من أن الولاية الشرعية ضرورة شرعية وعقلية حتمية، ينبغي لنا أن نؤمن بها في كل الأحوال. وهذا المعنى ليس فيه غموضاً شرعياً ولا غموضاً فلسفياً. فالضرورة هنا تعني الحقيقة إن كانت في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل. والمحور في هذه المسألة أن يكون البرهان صالح منطقياً من أجل أن يكون حجة. فالصلاحية الشرعية او العقلية للبرهان تعكس مقاربة الاستنتاج للحقيقة الواقعية، وبذلك يصبح حجة ملزِمة. وبمعنى آخر إذا

كانت المقدمات حقيقية كان الاستنتاج أقرب إلى الحقيقة الخارجية. ومن هنا جاء القول بأن الصلاحية البرهانية هي التي تحدد صدق المقالة أو كذبها. لأن النتائج تكون حقيقية إذا كانت المقدمات حقيقية، وتكون كاذبة إذا كانت المقدمات كاذبة.

وإذا انتهينا من إدراك قيمة البرهان في قصد الحجة، فإننا نستطيع أن نحوّل ذلك البرهان إلى جمل مفيدة يفهمها المخاطَبون. فالجملة المفيدة هي تعبير لغوي مفهوم عند الناس. فنحن لانستطيع استخدام المصطلحات الفلسفية من أجل إيصال أو تبليغ مرادنا للجمهور. بل لابد من الاستفادة من المنهج العقلي الفلسفي، والاهتداء بهدي المنهج الشرعي؛ ثم بعد ذلك نقل ما نريد نقله إلى الناس عبر جمل لغوية مفيدة تطابق الحقيقة والصدق وتقدر على خلق مقالات صادقة.

التأثير الفكري في المخاطَبين

إن للحوزة العلمية قابلية عظيمة على تصحيح السلوك الاجتماعي العام للأمة؛ لأنها تمتلك تأثيراً فكرياً هائلاً في البناء الديني للمجتمع الإسلامي. فالمكلفون يبنون نظراتهم الذاتية حول الحقائق الكونية والاجتماعية والتشريعية والعقائدية من خلال الاعتماد على أفكار الفقهاء ونظراتهم. والفرد المكلف بطبيعته يحاول ـ وبدوافع مختلفة ـ تسديد الرأي الذي يحمله في ذهنه أو تصحيحه، عبر ملاحظة سلوك بقية الأفراد وتوجههم وطريقة تفكيرهم. فإن كان رأيه مطابقاً لرأي الآخرين شعر على الأغلب بصحة اعتقاده واطمئن لسلامته. أما إذا كان مخالفاً لرأيهم فإنه سيهتمّ بوزن أفكاره وتصحيحها حتى تتناسب مع الفكر الاجتماعي المتفق عليه بين الأفراد في الطائفة الواحدة. ولاشك أن هناك حاجة لفهم طبيعة العرف الاجتماعي الذي يوحّد أبناء الدين الواحد أو المذهب الواحد. وتلك الحاجة تشجّع الفرد على البحث عن الآراء الأخرى التي يحملها الآخرون ضمن إطار النظام الديني والاجتماعي.

والقضية التي نودّ تأكيدها هنا ونكررها هي أن معرفتنا بالحقائق الكونية والدينية والاجتماعية التي من حولنا تنبع بالأصل من الإجماع الثقافي والفكري والديني الذي اتفقنا على صحته بالإجماع. فنحن تعلّمنا رؤية العالم الخارجي وفهمه من خلال الإجماع الفكري الذي اطمأنّت نفوسنا على سلامة مصادره الدينية والاجتماعية.

والمجتمع بأعرافه الفكرية والاجتماعية التقليدية يضع لنا مواصفات عديدة للعالم الذي نعيش فيه وللحقائق التي نؤمن بها. ولكن تلك المواصفات والحقائق لا تصيب الواقع في كل الاحيان. فتأتي رسالة الدين

هنا لتعرض لنا صورة واضحة عن عالمنا الخارجي بشطريه التكويني والاجتماعي. فتصبح عندها تلك المواصفات والحقائق على درجة عظيمة من الواقعية، لأنها تطابق الخارج. فالدين يصفُ لنا حقائق الوجود، والخلق، والخالق، والمجتمع، والنظام التشريعي، والممات، والحياة التي تنتظرنا بعد الموت.

ومن الطبيعي فإن البلاغة المطلوبة من الفضلاء الذين تخرّجهم الحوزة العلمية يجب أن تتناغم مع رسالة الدين في التأثير الفكري والاجتماعي. فإن تلك الرسالة الإلهية تهذّب نظرة المكلّفين وتوحّدها تجاه الحياة الاجتماعية والدينية، والنظر تجاه الخلق والخالق والوجود. ولاشك أن للذنب، الذي يحمله الكثير من الناس، دوراً مهماً في تسهيل عملية إيصال التأثير الروحي والفكري للمبلِّغ. فالفرد الذي يشعر بالذنب أمام خالقه عز وجل، يكون أكثر انفتاحاً للتأثير الروحي والفكري الإسلامي من غيره. فالمبلِّغ يذكّر المذنب بذنوبه. وهذا يولّد شعوراً عند المذنب إذا تلازم مع الدافع الذاتي بتصحيح الذنب، فإنه يتوجه نحو تصحيح سلوكه بما ينسجم مع تطلعات التكليف الشرعي والإلزام الأخلاقي للسماء. إن التذكير بالذنب وبأهمية التوبة والمغفرة الإلهية هو الذي يؤدي إلى إصابة معنى

▣ إن للحوزة العلمية قابلية عظيمة على تصحيح السلوك الاجتماعي العام للأمة.

▣ إن البلاغة المطلوبة من الفضلاء الذين تخرّجهم الحوزة العلمية يجب أن تتناغم مع رسالة الدين في التأثير الفكري والاجتماعي.

الرحمة الإلهية، وهو الذي يؤدي إلى الاحتجاج الآلهي يوم القيامة على الذين يصرّون على ذنوبهم ولا يفتحون باباً للاستغفار.

وبالإجمال، فإن هناك ثلاث مواصفات علمية واجتماعية يجب أن تتوافر في عالِم الدين من أجل نتائج أفضل للتأثير. وتلك المواصفات هي:

أولاً: الثقة بالنفس بصورة قطعية. وهي من أهم عوامل التأثير الاجتماعي. فالثقة بالنفس تعكس إيمان العالِم أو المفكّر أو المبلِّغ بالعقيدة التي يحملها ويدعو اليها. وإقناع الآخرين بصحة النظرية التي يطرحها انسان ما لابد وأن يكون مستنداً على ثقته المطلقة بصحة فكرته. لأن الشك في أصل الفكرة لا يساهم في إنجاح عملية التأثير الاجتماعي، بل يساهم في تحطيمها وإفشالها.

ثانياً: الدرجة العلمية والمعرفية العالية التي يجب أن يتمتع بها عالِم الدين أو المبلِّغ الرسالي. فالعالِم هو الذي يستطيع إدراك الأدلة الشرعية والعقلية وتحليلها، وفهم مذاق الشارع فيما يتعلق بالمباني التي لم يكتمل بناؤها كالنظرية الاجتماعية أو السياسية مثلاً. ولاشك أن العلم يرسخ في ذهن الإنسان عندما يصلُ حامله إلى درجة من اليقين في قطعية صدوره عن الله سبحانه وتعالى عبر المعصوم من نبي *صلى الله عليه وآله* أو إمام *عليه السلام*.

ثالثاً: المقابلة وجهاً لوجه بين العالِم والمتعلمين، أو بين الخطيب والمخاطَبين، أو بين المفكر الديني والذين يقرأون فكره. وهذا الاتصال الشفهي له تأثير بالغ في الذهنية الجماعية للامة، من خلال كشف حقائق الكون والحياة والخلق.

والحمد لله رب العالمين.

▣ فإن هناك ثلاث مواصفات علمية واجتماعية يجب أن تتوافر في عالِم الدين من أجل نتائج أفضل للتأثير: الثقة بالنفس؛ الدرجة العلمية والمعرفة العالية؛ والمقابلة وجهاً لوجه بين العالم والمتعلمين.

الهوامش:

(١) تحف العقول، ص ٢٣٠، بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٩٢.

(٢) لم نعثر على ذلك الوصف في (رجال النجاشي) الطبعة الحجرية في قم ص ٢٢٨. وطبعة جامعة المدرسين (١٤٠٧هـ) تحت رقم ٨٨٦. ولكن السيد الخوئي «قدس سره» ذكر ذلك في (معجم رجال الحديث) طبعة بيروت ج ١٧ رقم ١١٣٦٠. وعلى أي حال فالراوي معروف بالوثاقة عند الطائفة، فيُركن إلى روايته.

(٣) الصحاح، للجوهري. مادة «حدد». ج ١ ص ٤٦٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الوسائل، ج ١٥، ص ٣٠٩، باب ٤٢، رواية ٢٠٦٠٢.

(٦) سورة آل‌عمران، الآية ١٥٩.

(٧) الصحاح. مادة (هذى) ج ٤ ص ٢٥٣٥.

(٨) سورة البقرة، الآية ٣.

(٩) سورة العنكبوت، الآية ٨.

(١٠) سورة الروم، الآية ٢١.

(١١) سورة النساء، الآية ٢٩.

(١٢) الحجرات: ١٠.

(١٣) سورة البقرة، الآية ٢٥.

(١٤) سورة آل‌عمران، الآية ١٩٧.

(١٥) تحف العقول، ص ٢٣٠.

(١٦) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(١٧) بحار الانوار، ج ١، ص ٨٥.

(١٨) كفاية الأصول، ج ١، ص ٩٣.

(١٩) الصلف: هو الذي يتمدح بما ليس عنده. والنطف: الذي يقذف بالفجور.

(٢٠) الشنف: المبغض بغير حق.

(٢١) الملق: التذلل.

(٢٢) الغمز: الطعن بالشر.

(٢٣) الدمنة: الزهرة التي يكون ظاهرها زاهياً، ولكن محتواها لاينفع الحيوان.

(٢٤) كقصبة: بالقاف المثناة والصاد المهملة تعني الجص. والملحودة: القبر.

(٢٥) الاحتجاج، للطبرسي ص ١٦٦.

(٢٦) الصحاح، مادة حجج، ج ١ ص ٣٠٤.

(٢٧) راجع كتاب: «المنطق، والألفاظ، والرياضيات». تأليف: الفرد تارسكي. اكسفورد: مطبعة جامعة اكسفورد، ١٩٥٦.

(٢٨) سورة الروم، الآية ٤٧.

(٢٩) سورة النور، الآية ٥٥.

(٣٠) سورة النساء، الآية ٥٩.